افتداء الألم

بقلم / صفوت زكي سمعان

تركز نظرة المسيحية إلى المعاناة على كلمة افتدائي". رغم أن الألم في حد ذاته قد يكون سببا للاحتجاج الغاضب، فإنه قد يسهم أيضا في الحياة - بعبارة أخرى، يمكن افتداؤه. إني أقاوم الذين يفترضون أن الله يرسل المعاناة لتحقيق الخير. كلا، لم أجد في الأناجيل يسوع يقول للمتألم : إن سبب معاناتك من نزيف الدم (أو الشلل أو البرص هو أن الله يعمل على بناء شخصيتك. لم يلق يسوع محاضرة على أشخاص كهؤلاء، لكنه شفاهم . مع ذلك، كل فقرة

تقريبا في الكتاب المقدس تتحدث بشأن المعاناة، تستكشف كيف يمكن لشيء " سيء" حتى أن يفتدي من أجل الخير .
عندما كتب بولس ويعقوب وبطرس إلى المؤمنين الذين كانوا يتعرضون ظلما إلى الاضطهاد لأجل إيمانهم، شددوا جميعهم على قيمة المعاناة التي يمكن استبدالها . مثلا، قال بولس لأهل رومية: " بل نفتخر أيضاً في الضيقات عالمين أن الضيق ينشئ صبرا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء.
شبه الرسول بولس إنجازاته التي حققها جاهدا بكومة من الروث، لكن حتى هذه يمكن إعادة تدويرها لتكون سمادا طبيعيا. إن معاناة مارتن لوثر كنج الابن، ونيلسون منديلا، وسولجينيتسين، وآلامهم كلها استبدلت بها طرق ما كان بوسعهم في ذلك الوقت تخيلها. وعلامة التاريخ المميزة، تنفيذ الإعدام بابن الله، يتذكرها الكثير من المسيحيين بوصفها الجمعة العظيمة، وليس المظلمة أو المأساوية . قال يسوع إنه كان في وسعه أن

يدعو جيشا من الملائكة ليمنع صلبه . لكنه لم يفعل. إن طريق الفداء تمر عبر الألم وليس حوله.

يتناول خادم الرب فيليب يانسي موضوع عن صديقه جيري فيقول : بعد عدة أسابيع على عودتي من سراييفو، اخترت كتابين أحدهما جديد والآخر قديم، كتبهما صديقي جيري سيتسر (Jerry Sittser)، وهو أستاذ جامعي في كلية ويتوورث (Whitworth)، يروي فيهما قصته الشخصية الطويلة والمفضلة عن المعاناة التي يمكن استبدالها. قبل عشرين عاما كان جيري يقود عائلته في حافلة صغيرة في ريف ولاية أيداهو (Idaho) عندما فوت أحد المنحنيات سائق مخمور يقود سيارته بسرعة ١٢٠ كم/الساعة تقريبا، فعبرت سيارته المسار وصدمت مقدمة سيارة سيتسر. في الدقائق القليلة التالية؛ وعلى الرغم من محاولاته اليائسة لإنعاشهم، شاهد جيري زوجته ووالدته وابنته ذات الأربع سنوات يمتن أمام عينيه. فقد ثلاثة أجيال على الفور وأصيب أولاده الثلاثة الناجون بإصابات بالغة .

افتداء الصدمة بالصبر والتزكية والرجاء

كتب جيري عن تلك الصدمة البالغة في كتابه الأول " نعمة متنكرة.. (A Grace Disguised) " الذي ساعد كثيرين على التعامل بنجاح مع حزنهم وخسارتهم روى في الكتاب تفاصيل مراحل الحزن وصعوبات التعامل بنجاح مع الحياة بوصفه أبا أرملا في الوقت الذي يدير فيه عمله بدوام كامل يكتب اذكر كيف كنت أغرق في مقعدي المفضل ليلة بعد أخرى، أشعر بالإرهاق والكرب حتى إني كنت أتساءل عما إذا كنت سأبقى حيا ليوم آخر. شعرت بائي معاقب لمجرد أني حي، واعتقد أن الموت سيجلب لي راحة مرحبا بها.
واجه جيري لحظة مفصلية في حياته. لاح المستقبل مثل عالم مجهول واسع ومخيف. لقد غيرت الخسارة الناتجة عن الحادث حياتي، ووضعني

على مسار نحو الأسفل كان علي أن أنطلق عليه سواء أردت ذلك أم لا. ألقى على كاهلي عبء هائل وتحد رهيب معا. واجهت اختبار حياتي. انتهت مرحلة أولى من حياتي، وكانت المرحلة الأخرى الأصعب على وشك أن تبدأ.

بعد عشرين عاما، كتب جيرى كتابا تاليا للأول بعنوان: " نعمة تتكشف" (A Grace Revealed)، يروي فيه ما حدث منذ ذلك الوقت: المساعدة العملية التي حصل عليها من الطلبة وأفراد مجتمع الكلية الآخرين، تجارب تنشئة أولاد دون أم، وفي نهاية المطاف، التحديات الجديدة للزواج الثاني والعائلة المختلطة. إن كل كلمة يذكرها بولس(الصبر، التزكية، الرجاء تلعب دورا في قصة سيتسر، ويركز الجزء الأول من الكتاب على كلمة الفداء.

الرجوع إلى الأصل

إن كل كلمة إنكليزية تبدأ بالبادئة "Re-"، كما يلاحظ سيسر، تعود حالة أصلية في الماضي. إننا نصلح (Re-hab) بيتا قديما، نستأنف (Re-sume) الدروس بعد عطلة الشتاء، نعيد تنظيم (Re-organize) المكتب، نعيد اكتشاف (Re-discover) متعة التزلج. إن كلمة يفدي" (Re-deem) تضيف بعداً جديداً بالإشارة إلى الأمام إلى المستقبل. العبد المفتدي يتحرر إلى حياة جديدة. والخاطي المفتدي يدخل حالة جديدة من النعمة. لكن يضيف جيري الفداء أيضا أن الفداء يتضمن دائما ثمنا لافتداء عبد ما. يجب أن يدفع شخص آخر ثمنا في حالة الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، كان على الأمة بأكملها أن تدفع الثمن. ولافتداء الكوكب، يجب أن يموت شخص ما.

أود أن أقترح حقيقة أخرى عن الفداء : حتى في الحالة الجديدة، تبقى هناك ندوب. العبد المفتدي يحمل ندوبا، بالمعنى الحرفي، على أطرافه وظهره من الأغلال والضرب. ومدمن الخمر المفتدى يحمل ندوبا في كبده. والمعاناة المفتداة تحمل ندوبا أيضا: الحادثة وما تلاها لن تمحى بتاتا من ذاكرة جيري وأولاده. الناجون من التسونامي وضحايا الحرب في سراييفو ومجتمع نيوتاون - قد يجدون طرقا لاحتمال المعاناة، حتى لتحملها، لكن الذكريات المؤلمة لن تختفي بتاتا، ولا ينبغي أن تختفي. حتى جسد يسوع المقام من الموت احتفظ بعلاماته.
في الفصل الأخير من كتاب "نعمة تتكشف"، يعترف جيري أنه لا يستطيع إنهاء الكتاب بتقرير مفرح - بترتيب وتنظيم كقصص الأطفال - بأنه بعد بعض الوقت عاشا بسعادة دائمة"

افتداء الضيق بالنجاح

نرى في (تكوين 37.)، أن يوسف لم يتوقع ما يحدث له من اقرب الناس إليه. من إخوته. لم يحسب في فكره لحظه تأتي أن المحبة تتحول إلى بغضه ليجد نفسه مطروحا في بئر ماء فارغه حزينا يتجرع الألم والاكتئاب. ليتم ما قاله داود في مزمور 109 "بدل محبتي يخاصم وننني." ثم أحرجوه من البئر لتكتمل رحله الألم. والمشقة فباعوه عبداً للإسماعيليين. ثم باعوه في مصر لفوطيفار رئيس الشرط وهناك. افتدى الرب يوسف من الألم والمشقة بالنجاح كما هو مكتوب "وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا" (تكوين 39) و مرحله اخرى من مراحل الألم في حياه يوسف. عندما وضعوه سيده في السجن. بسبب بتهمه لم يقترفها. وفي بيت السجن مره اخرى. افتدى الرب ضيقات يوسف. ليرفع وجهه. ويعطيه نعمه في عيني رئيس بيت السجن، وكان الرب مع يوسف وبسط إليه لطفا ومهما صنع كان الرب ينجحه وتسلط يوسف على كل ما كان يعمل في بيت السجن بسلطان كرئيس بيت السجن.

واكتمالا لقصه الفداء التي يعيشها يوسف ثم افتداء ألام السجن بنجاح اعظم من نجاحات الماضي كلها فسلطته فرعون على كل ارض مصر واعطي فرعون خاتمه ليد يوسف والبسه ثياب السلطة ووضع طوق من الذهب في عنقه ولا يستطيع إنسان أن يرفع يده أو رجله بدون علم يوسف في كل ارض مصر كما هو مكتوب في (تكوين 41) كل منا يعيش على أديم هذه الأرض، يعيش حياه الفداء والتعويض حياه الألم والمرض لحين وقت الفداء بالشفاء وافتداء فتيه أتون النار بخلاص إله جبار استطاع أن ينقذ عبيده، وافتداء دانيال في جب الأسود الجائعة بالمشتكين عليه فصاروا وجبه شهيه بين أنياب الأسود (دا 6 : 24).

أذكر فترة مرت في رحله حياتي عانيت فيها من الألم والضيق بسبب تصرفات واحد من الجيران الأشرار وبألفاظ شتائم وسباب بلا سبب لكل سكان البيت ولا أي سبب تافه وقررت اعتزاله وتجنبه فرآني عدواً له اكثر وابتدأ يعاديني اكثر وأخذ رقم عربيتي وحرر له مخالفات مروريه كثيره عن طريق أصحابة من أفراد الشرطة ولمده ثلاثة سنوات إلى وقت ثوره 25 يناير سنه 2011 فجلسنا أمام البيت مع الجيران وتصافحنا وتصافحت معه لكني كنت اصلي طوال هذا الوقت بسبب كثره مضايقاته وما سببه لي من أذي وخساره، وكنت اقدم مشيئه الله في هذا الأمر واخضع لإرادته لأجل افتداء هذا الضيق النفسي والأذى والخسارة التي طالتني بسبب عداوته، وكانت مشيئه الرب غير ما كنت أتوقعه، وكنت اصلي أن ينقله الرب من البيت إلى مكان افضل وسكن افضل لكن مشيئه الرب كانت بنقله من الحياه بأكملها قبل نهاية سنه 2011 وافتدى الرب ضيقاتي براحه لا تخضع للكم والكيف بحسب مشيئته. نحن نعيش قصه الفداء كل يوم قد تقصر أو تطول معنا بطول العمر ومن حين لآخر نتمتع بالفداء الممنوح لنا من خلال الفداء الأعظم الذي في المسيح، وبالمسيح حصلنا بموته على الفداء الأبدي، وبه ننال الفداء الوقتي كل يوم في مشوار حياتنا فداء من الألم والمرض والضيق ليعطينا مكانها الراحة والشفاء والفرح والسلام لأنه حمل أحزاننا وأوجاعنا تحملها (اشعياء 53).

الرب قد افتدانا من لعنه الخطية والى الأبد لذلك يفتدينا كل لحظه من لعنه المرض والحزن والألم إن كنا نؤمن به ونتبع وصاياه " إن كنت تسمع صوت الرب إلهك وتصنع الحق في عينيه وتصغي إلى وصايا وتحفظ جميع فرائضه فمرضا ما وضعته على المصريين لا ادعوا عليك فاني أنا الرب شافيك خروج" (15 : 26).

في نهاية المطاف، سنعيش بسعادة دائمة، لكن فقط عندما تنتهي قصة الفداء، التي يبدو أنها ستستغرق وقتا طويلا. في الوقت الحاضر، أنت وأنا موجودان في مكان ما في منتصف القصة، كما لو أننا علقنا في فوضى وعدم ترتيب مشروع تحسين بيت ما لم ينته نصفه ، قد يكون لدينا فصل واحد باق في قصتنا، أو قد يكون لدينا الكثير ، في وسعنا أن نختبر المزيد من الشيء نفسه للسنوات المقبلة، أو قد نكون على حافة تغيير جذري ومفاجئ بحيث إننا لو كنا نعرف ماهيته لأغمي علينا من الخوف والعجب، أو ربما من كليهما، ويمكن أن ندخل إلى أسعد مرحلة في حياتنا أو أتعسها ، إننا بكل بساطة لا نعرف، ولا نستطيع أن نعرف. هناك في رأيي خيار جيد واحد فقط : يجب علينا أن نختار البقاء في قصة الفداء - ومهما كانت غير واضحة بالنسبة إلينا، يمكن الوثوق بأن الله هو الذي يكتب القصة ..

المصادر

كتاب السؤال الذي لا يغيب – فيليب يانسي – ص81 – الطبعة الثانية 2015

بقلم الأخ/صفوت زكي سمعان